بين زينب ودعاء الكروان والأرض

بقلم : يوسف الشاروني

بالرغم من ان قصة « أبو منذور » التى ظهرت أخيرا للاستاذ محمد زكى عبد القادر لا تعالج موضوعا جديدا بالنسبة لأدبنا العربى المعاصر ، الا اننا نحس بعد قراءتها انها اضافة الى هذا الادب وتعبير عن مدى تطوره المرتبط بتطورنا الاجتماعى .

انها قصة العلاقة التى تنشأ بين الرجل السيد وبين الريفية التى تعمل فى خدمته ، والرجل هنا سيد مرتين بل ثلاث مرات : مرة لوضعه الطبقى ومرة بسبب انتمائه الى جنس الرجال ومرة ثالثة بسبب انتمائه الى مجتمع المدينة الذى يبدو فى مرتبة السيادة بالنسبة لمجتمع القرية ، فهى علاقة لا يمكن أن تنشأ اذن الا فى ظل مجتمع يتقبل بل وينمى هذه السيادات المختلفة ، ولا عجب فأحداث القصة تبدأ عام ١٩١٨ وتدور بين القاهرة وقرية من قرى مديرية الشرقية .

ولهذا فعلاقة رفعت بك ابن سعادة المفتش بالفلاحة صبحة فى قصة ابو منذور التى نشرت عام ١٩٦٣ تذكرنا على الفور بعلاقة حامد بزينب فى قصة محمد حسين هيكل التى نشرت لاول مرة عام ١٩١٤ ، وبعلاقة مهندس الرى بآمنة فى قصة دعاء الكروان لطه حسين التى نشرت عام ١٩٣٤ ، ولعل جانبا من الاختلاف بين هذه العلاقات الثلاث وطريقة التعبير عنها يرجع الى الاختلاف بين ظروفنا الاجتماعية التى انتجت هذه الاعمال الثلاثة فى فترات متباعدة نسبيا

فمما تجدر الاشارة اليه أن التباعد فى تاريخ الكتابة والنشر أكبر مما هو بين أحداث القصص الثلاث . لان وقوع احداث قصة « ابو مندور » عام١٩١٨ يجعلها فى فترة قريبة من احداث قصتى زينب ودعاء الكروان .

— ٢ —

وقصة ابو مندور قسمان يقول مؤلفها :

ان القسم الاول رواه محمود ابو مندور ، وانه — اى مؤلفها — تولى رواية القسم الثانى . والواقع ان المؤلف هو الذى روى لنا القصة كلها ، كل ما هناك اننا نستمع في القسم الاول الى روايته لما رواه له محمود ابو مندور، فنحن نستمع الى رواية داخل رواية ، ولا يتلقى القارىء رواية محمود ابو مندور له مباشرة . وقد تسبب ذلك في انقطاع السياق الروائى أكثر من مرة لنستمع الى تعليقات المؤلف . ويبدو ان المؤلف كان يريد ان يعطينا بذلك صورة لشخصية محمود ابو مندور ، وكان يمكنه ان يكتفى بما يرويه محمود ابو مندور مباشرة ، ليستخلص القارىء من ذلك صورة لشخصيته.

وقد بلغت طريقة السرد حدا من التعقيد فى بعض الاحيان حين نستمع للمؤلف يروى عن محمود ابو مندور وهو يروى بدوره عن أخته صبحة ، ولو أن المؤلف روى لنا القسم الاول كما روى القسم الثانى لتخلص من هذا المأزق ، فبالاضافة الى انه لم تكن هناك ضرورة فنية تلجئه الى مثل هذه الطريقة فى رواية الجزء الاول ، فان هذه الطريقة نفسها قد أوقعته فى مأزق فنية كان هو فى غنى عنها ، وخير دليل على ذلك هو خلو القسم الثانى من هذه المآخذ . فنحن نستمع فى القسم الاول الى محمود ابو مندور يروى أحداثا لا يمكن أن تصل الى علمه ، انما هى فى علم المؤلف باعتباره خالقا للعمل الفنى ، مثال ذلك روايته ماحدث من مشادة بين رفعت بك وابيه المفتش عقب القبض على رجال التفتيش، وهى مشادة لم يشهدها ولم يترام نبأها الا للمؤلف نفسه باعتباره خالقا للعمل الفنى ، وكذلك تحليله للصراع النفسى الذى تعرض له رفعت بك عندما استعصت عليه صبحة . ففضلا عن أن تحليل هذا الصراع — لو وصل الى علم محمود ابو مندور بطريقة خارقة — فانه فوق مستواه ، اهذا نلمح المؤلف واضحا كل الوضوح وهو يتحدث من خلال محمود ابو مندور موظف الاوقاف الصغير الذى لم يتعلم الا فى الكتاب وهو يتحدث عن علاقة رفعت بك بأخته صبحة ، قائلا : كانت ترتفع اليه وتنخفض ، وينزل اليها ويرتفع . لم يكن يستقر على حال.. احيانا تسيطر عليه فكرة اغتصابها ولكنه يشمئز ، واحيانا يشعر انها اكثر من خادم فيأبى ان يردها الى مرتبة الخادم .. الى آخر هذا التحليل الذى لايمكن ان يصدر الا عن المؤلف المحايد وليس عن الاخ الفلاح المتعاطف مع اخته أو الثائر على تصرفات رفعت بك .

اما القسم الثانى فيتبع الطريقة الكلاسيكية فى تتبع الاحداث مع جانب من شخصيات القصة حتى تصل بهم الى نقطة معينة ، ثم تعود القهقرى لتجلو ما وقع فى هذه الاثناء للجانب الآخر من الشخصيات .

— ٣ —

لهذا لا نستطيع ان نقرر أن قصة ابو مندور من الناحية الشكلية تعبر عن مدى تطورنا الروائى المعاصر ، انما

الاضافة الحقيقة فى هذه القصة هو انها تعالج العلاقة بين رفعت بك وصبحة على نحو فردى كما كان الشأن بين حامد وزينب أو بين مهندس الرى وآمنة ، بل هى علاقة اشترك فيها المجتمع كله ، فالصراع بين السيد وخادمته صراع بين طبقتين ، قد ينضم فيه افراد احدى الطبقتين الى الاخرى اما لمصالحهم الفردية كما فعل بعض فلاحى القرية مثل متولى ناظر التفتيش حين انضموا الى رفعت بك ، واما لاتجاهاتهم الفكرية كما فعل الحسينى بك رئيس النيابة الثرى الذى رفض ما تعرض له من ضغط حتى يتحيز فى التحقيق لصالح رفعت بك وفضل ان يستقبل تشجعه على ذلك ثروته ليعمل محاميا ويدافع عن صبحة واخيها وانصارهما ، ولكن طبيعة الصراع تظل فى جوهرها : مالك يريد أن يغتصب خادمته ، واقطاعى يريد أن يغتصب فلاحيه ، وليس صمود صبحة أمام وعد رفعت بك ووعيده حدثا فرديا بل لقد ارتبط ارتباطا وثيقا بانتقام الفلاحين من رفعت بك عندما تحداهم فى قريتهم . لقد بدا ان هذا الهجوم هو ثورة من الفلاحين لعرضهم الذى حاول رفعت بك أن يغتصبه ، لكنه كان فى واقع الامر فرصة للتعبير عن سخطهم على نظام يعانون منه ، ويجلس رفعت بك فوق قمته ، تماما كما بدا صمود صبحة أمام رفعت بك كأنما هو مجرد دفاع عذراء ريفية عن شرفها بينما هو فى واقع الامر رمز لدفاع جماهير الفلاحين الذين خرجت صبحة من صلبهم امام محاولات السادة لاغتصاب ما تبقى لهم من كرامة .

ليس غريبا اذن ان نجد المسحة الرومانسية تسيطر على روايتى زينب ودعاء الكروان ، بينما تنأى قصة أبو منـدور عن هـذه المسحة وتقترب من الادب الواقعى الى حد كبير . ولنأخذ كيف تناول كتابنا الريف فى هذه الروايات الثلاث . ان كتابنا بمجرد اختيارهم موضوعات رواياتهم انما يعترفون بوجود مجتمع فيه سادة وخدم ، وهم بمجرد منح شخصياتهم النسائية موقف الصلابة امام اغراء سادتهم انما يعترفون بما تضطرم به نفوس هذه الفئة المضطهدة من ثورة . ولكن حسين هيكل فى زينب وطه حسين فى دعاء الكروان لا يسمحان لهذه الثورة بالتعبير عن نفسها فى غير نطاقها الفردى .

فحسين هيكل يقرر فى روايته أن العمال الزراعيين : تعودوا ذلك الرق الدائم ينحنون لسلطانه من غير شكوى ومن غير أن يدخل الى نفوسهم قلقا ، يعملون دائما ومن غير ملال ، ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة ثم يقطف ثمرتها سيد مالك كم فكر فى انه يبيع قطنه بأغلى ثمن ويؤجر ارضه بأرفع قيمة ، وفى الوقت عينه يستغل الفلاح نظير قوته الحقير ، ولم يدر بخاطر السيد يوما أن يمد له يد معونة أو أن يرفعه من درك الرق الذى يعيش فيه . وكأنه ما علم أن هذا المجموع العامل يكون اكثر نفعا كلما زادت أمامه اسباب المعيشة وتوفرت عنده دواعى الطمع فى أن يحيا حياة انسانية : (طبعة دار الهلال ــ القاهرة ــ يناير سنة ١٩٥٣ ــ ص ٢٠ ، ٢١)

وهكذا نجد أن حسين هيكل بالرغم من اعترافه باستغلال الفلاح الا انه يزعم انه لا يشكو هذا الاستغلال ، ويعيب على السيد انه لا يمد يد المعونة لهذا الرقيق حتى يكون اكثر نفعا له، فكأن

كل ما يطالب به حسين هيكل هو وجود أسياد اكثر ذكاء .

أما طه حسين فقد وصف حياة آمنة فى القرية على لسانها بأنها : كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع الى ذلك الطور الابله الذى جعلت اخرج منه قليلا قليلا .. (دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الاولى ـ سنة ١٩٤١ ـ ص ٦٨) ، وهكذا يعبر لنا طه حسين عن وعى بطلته ـ كما يقول الاستاذ بدر الدين الديب ـ بهذه الالفاظ المجردة العامة التى تجنب الكاتب بها الدخول فى تجارب وتفاصيل مستمدة من حياة بطلته. (دعاء الكروان) ـ او طه حسين روائى ـ مجلة الاديب ـ بيروت ـ يونية سنة ١٩٥٣ ـ ص ٢٤) بل انه ما يلبث ان يصور اهل الريف كما سبق أن صورهم حسين هيكل ، فأم آمنة تهيب بابنتها قائلة : انظرى الى هؤلاء الرجال والنساء والى هؤلاء الفتيان والفتيات ، قد ملأهم النشاط وبعث فيهم الجد حياة لا حد لها . فهم يذهبون ويجيئون وهم يعملون لا يعرفون كللا ولا سأما وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وانما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذى يبعث فى الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذى يصور الامل فى غير اسراف ، والرضى فى غير استكانة ، والاطمئنان فى غير حزن ، وحب العمل على كل حال والثقة بالله على كل حال. (دعاء الكروان ـ دار المعارف ـ ط١ سنة ١٩٤١ ـ ص ٧٦ ، ٧٧) .

أما محمد زكى عبد القادر فانه لا ينظر هذه النظرة المزيفة الى اهل الريف ، ولا يعبر عنه فى كلمات مجردة عامة ، ان الريف فى وعى بطلته وكما جاء على لسانها : بالليل انام على الشوك، حاقعد طول عمرى فى التفتيش أروح وآجى ، استحمل رزالة متولى الناظر والخولية ، اشتغلى يا بنت انت وهى .. اللوزة دى سايباها ليه يابت .. وسلسلة من الشتائم لا تنتهى ، وآخر النهار اروح مهدودة القاك انت يا محمود لابس جلابية مقطعة وابويا مش قادر يشيل دراعه من الفاس طول النهار ، وامى مشدودة عمالة تشتم وتلعن . (ابو مندور ـ الدار القومية ـ القاهرة ـ ص ٥٥) . هنا نحن امام تفاصيل ووقائع وخبرة . واهل الريف ليسوا ـ كما صورهم هيكل وطه حسين ـ راضين قانعين بأوضاعهم، فان صبحة ما تلبث ان تستطرد قائلة: كنت بتشوفنى هادية يامحمود، ساكتة كانى مش باحس ولا باعرف ـ انا كنت باغلى من جوه لكن اعمل ايه . (المرجع السابق ص ٥٥) .

ويبلغ التعبير عن مدى تأخر ريفنا فى مقابل مجتمع المدينة ، ليس من خلال حوار شخصيات القصة ، بل من خلال تطور الاحداث نفسها ، عندما يخطب رفعت بك ابنة احد الباشوات ، وتجد صبحة ان آمالها تحطمت فيفلح الحاج اخيها بالعودة الى القرية ، وعندما بلغا البندر طلب منها اخوها ان تغير ملابسها « ولغوتك كمان يا صبحة ، أرجعى زى ما كنت .. انسى اللى شفتيه » . (المرجع السابق ص ٩٤) .

ـ ٤ ـ

ان الريف الذى نتعرف عليه فى قصة ابو مندور قريب الشبه بالريف الذى

نتعرف عليه فى قصة الارض لعبد الرحمن الشرقاوى ، لهذا فموقف الفلاحين فى كلا القصتين من اصحاب السلطان فى المدينة ـ مع اختلاف الاسباب ـ كان ايضا متشابها . وكما اختلف الريف فى قصة ابو مندور عن الريف فى قصتى زينب ودعاء الكروان ، كذلك اختلف عنهما الريف فى قصة الارض .. يقول عبد الرحمن الشرقاوى مقارنا : وتمنيت لو ان قريتى كانت هى الاخرى بلا متاعب ، كالقرية التى عاشت فيها زينب ... الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء، والحكومة لا تحرمهم من الرى ولا تحاول ان تنتزع منهم الارض او ترسل اليهم رجالا بملابس صفراء يضربونهم بالكرابيج والاطفال فيها لا يأكلون الطين ولا يحط الذباب على عيونهم الحلوة . وتمنيت لو ان قريتى كانت هى الاخرى كقرية «زينب» لا ينزل فيها من الرجال والنساء بعد البول دم وصديد ولا يدهم اهلها المرض المفاجىء فى جفونهم ، فيتلوى الانسان منهم لحظة ويطلق صرخات يائسة فاجعة من حدة الالم .. ثم يسكت .. يسكت الى الابد. (الارض ـ دار روز اليوسف ـ يونية سنة ١٩٥٤ ـ جزء ٢ ـ ص ١٤٣) لكن صاحب الارض مايلبث ان يستطرد فى مقارنته قائلا : ولم تعرف قرية زينب زهو النصر وهى تتحدى القضاء والانجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت . (المرجع السابق ص ١٤٤) .

ولئن انحصر التعبير فى قصة ابو مندور عن الصراع بين الفلاحين من جانب ورفعت بك ومن يناصرونه من رجال الحكم من جانب آخر فى تلك المعركة التى دارت بين الجانبين وكسرت فيها ذراع رفعت بك ثم ما تلا ذلك من اجراءات التحقيق والمحاكمة ، فقد اتاحت طبيعة الصراع فى رواية الارض أن تتعدد جوانب التعبير عنه ، فلم ينحصر فى مجرد الصراع المباشر بين الفلاحين ومن يريدون ان يغتصبوا منهم مياههم واراضيهم ، بل ساندت هذا الصراع ظواهر اخرى اهمها ظاهرتان : اولهما ثورة فكرية من جانب بعض الفلاحين على العقائد التى تدعم سيطرة مغتصبيهم ، وثانيهما محاولة الكاتب التغلغل فى نفسية الشخصيات التى يستخدمها السادة لارهاب هؤلاء الفلاحين لنكشف معه فى النهاية انهم ينتمون الى نفس طبقة الفلاحين وليسوا الا مجرد ادوات يستغلها السادة تماما كما يستغلون الفلاحين ، وهكذا تتكشف تلك العداوة الظاهرية عن شعور مشترك بالمأساة والرغبة فى الثورة.

اما الثورة الفكرية فيمثلها عبد الهادى، فهو لا يؤمن بما يردده الشيخ الشناوى من ان اغتصاب الحكومة مياه الفلاحين وارضهم لصالح التفتيش لعنة حلت على القرية لانها لا تصلى وتعصى أوامر الله ، وان ارض الباشا تنعم بالمياه خمسة ايام كل اسبوع لانه يؤتى الزكاة والقرية تمنعها . بل يرى عبد الهادى ان اهل قريته لا يملكون ما يدفعونه للزكاة ، وان فى تلك القرى البعيدة التى سمع عنها لا يدفع صاحب الارض زكاة ولا يؤدى صلاة ، ومع ذلك فالماء يجرى فى ارضه والحبوب تتكدس فى مخازنه وغضب الله لا يعرف طريقا اليه ...

وهذا الرجل يسرق من الانفار ويشرب الخمر فى نهار رمضان ويغتصب الفتاة التى تعجبه ويظل بعد كل هذا بعيدا عن غضب الله .. ولا تحجز الحكومة على ارضه وتفدق عليه الماء . (الارض ـ جـ ١ ـ ص ٨٨) . بل ان القرية كلها لا تصدق هذا التعليل او التبرير (الارض ـ جـ ١ ـ ص ٩٤) .

اما الكشف عن نفسية بعض الشخصيات التى كان يستخدمها السادة فى اضطهاد الجماهير وارهابها لتكشف لنا عن وجه آخر مختلف عن ذلك كل الاختلاف فواضح مثلا عندما اقبل موظفو المساحة الثلاثة على عمدة القرية فلم يعجبه تصرفهم ، فسلط عليهم الشيخ شعبان مدعى الدروشة حتى ضايقهم فصاح أحدهم فيه « غور كده حاتقطع البدلة اللى جايبينها بالتيلة . يعنى شايفنا مبسوطين قوى من الشغلة دى . جاى تقرفنا كمان (الارض ـ جـ ٢ ـ ص ٩٥) . اما قصة الشاويش عبد الله رئيس الهجانة الذى جاء مع زملائه ليؤدبوا اهل القرية على جراتهم فهى اكثر وضوحا ، فبعد أن اظهر المؤلف الجانب الرسمى للشاويش عبدالله، وهو جانب لايعرف الرحمة ولا التفاهم ، يعود فيذكر لنا انه جلس « يفكر فى امه وهو يحدث نفسه فى ندم انه ضرب فى هذه القرية رجالا كأبيه ، ونساء كأمه ، وضرب أيضا اطفالا صغارا كأخوته . وكالاطفال الذين أحبهم فى قريته ، (الارض ـ جـ ٢ ـ ص ١٤١) . ثم يكشف لنا عن طبيعته الانسانية شيئا فشيئا حتى انه جلس مع أهل القرية ـ الذين سبق أن أدبهم بكرباجه ـ ليحدثهم عن أسرته التى تشقى فى اسوان ويفنى فى نغم حزين :

اشمعنى جفاهم ابيض
وجفانا جالوص طين
واشمعنى الخير حداهم
واحنا شحاتين

ثم تتطور شخصيته حتى يعتدى على مامور المركز دفاعا عن أهل القرية، مما عده بعض النقاد مبالغة وعيبا فنيا فى القصة .

حقا اننا نجد في قصة ابومندور شخصيات من طبقة السادة أو ممن يستخدمونهم كأدوات اضطهاد ، تعطف على الفلاحين ، أو تقف الى جانبهم مثل ضابط النقطة بهجت خلف ومثل وكيل النيابة ورئيس النيابة وعايدة هانم اخت رفعت بك ووالدها المفتش نفسه ، لكنهم يتخذون هذا الموقف منذ بدا القصة لايعانون صراعا ما ، ولايناقش المؤلف موقفهم من داخلهم بحيث بدت مواقف العطف والتأييد غير مفهومة أو مبررة في كثير من الاحيان ، وبحيث تبدو معظم هذه الشخصيات مسطحة لا عمق لها .

لهذا كله بدت طبيعة الصراع فى قرية «الارض» اعمق واشمل من طبيعة الصراع فى قرية « ابو مندور » ، ولعل هذا الخلاف كان له اثره فى نهاية كل من الروايتين. فمؤلف قصة «ابومندور» كان اميل الى الانتهاء بالمصالحة بين الطرفين كأنما صراعهما كان مجرد رومانسية : مش حانساك يا صبحة ابدا .. انت علمتينى كتير (أبو مندور ـ ص١٧٢) . وعندما ماتت صبحة مشى رفعت بك فى جنازتها . وهكذا جمعت نهاية قصة « ابو مندور » بين نهايتى زينب ودعاء الكروان ، فالاقتراب الذى

حدث فى النهاية بين رفعت بك وصبحة اشبه بتلك المصالحة التى حدثت فى النهاية وبصورة اوضح بين آمنة ومهندس الرى وهى المصالحة التى انتهت بتهيئهما للزواج ، وكما ماتت زينب شهيدة لانها تزوجت رغم انفها فقد ماتت صبحة « قديسة جفت على عودها .. عذراء لم يمسسها بشر ».

اما قصةالارض فانها تنتهىوالصراع ما يزال مستمرا لانه كان ـ كما قلنا ـ أعمق واشمل وبحيث انعكس فى تعدد جوانب التعبير عنه .

ان تطور حياتنا الاجتماعية اليوم قد اوحى بلاشك بتطور الاحداث فى قصة ابو مندور ، وكأنما الاستاذ محمد زكى عبد القادر يريد ان يقول انتطورنا الاجتماعى الحاضر ، كانت له مقدماته التى مهدت له بحيث جاء منطقيا مع هذه المقدمات ، فقد كان ريفنا منذ اكثر من أربعين عاما يضطرم بروح التململ والثورة متلمسا طريقه نحو عدالة اجتماعية يفتقدها، وهذا ماسبق ان اعلنه عبدالرحمن الشرقاوى فىروايته الارض قبل ذلك بعشر سنوات . لهذا فلئن كانت رواية الارض تحمل روح الاهابة والتنبيه فان قصة «ابو مندور» تحمل روح التفسير والتعليل .